المُسامحة.. قوة واقتدار وتصميم

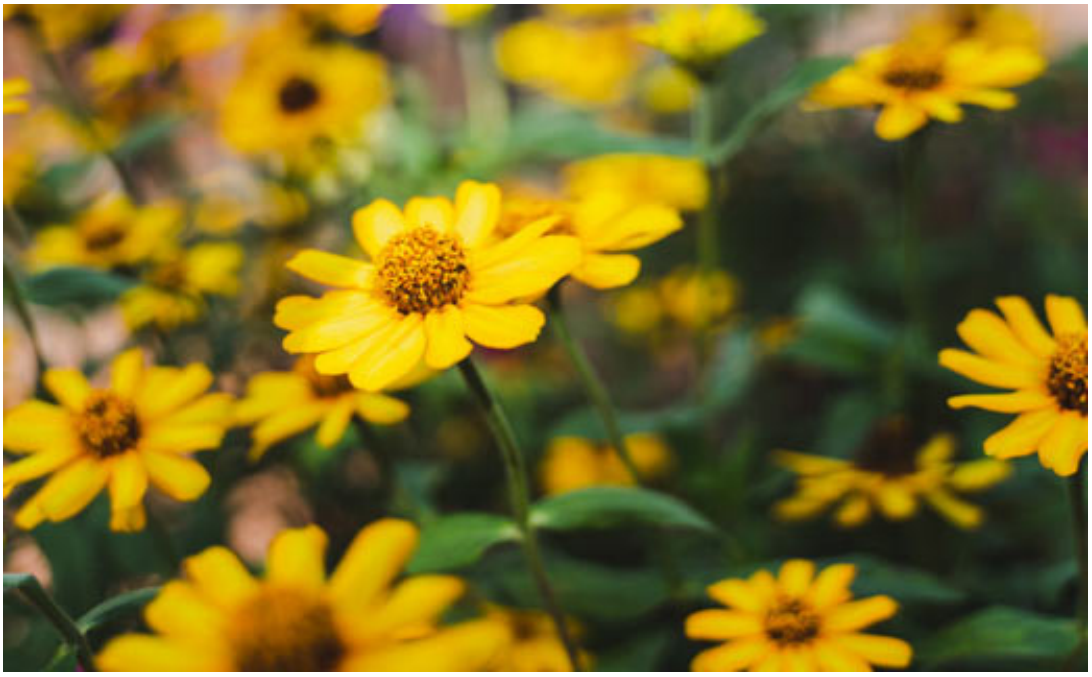

◄قال تعالى: (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمُورِ) (الشورى/ 43). عبارة (عزم الأمور) إشارة إلى العمل الذي أمر الله تعالى به، ولا يمكن أن يُنسخ، وقيل إنّه من الأعمال التي يجب أن يشدّ الإنسان العزم لها. ومجيء (الصبر) قبل (الغفران) في الآية دليل على أنّ العفو والغفران لا يمكن أن يحصلا بدون الصبر؛ لأنّه مع افتقاد الصبر يفقد الإنسان سيطرته على نفسه ويحاول الانتقام مهما كان، فالصّبر هو الآلة التي ينجز بها فضيلة (المُسامحة). فالمُسامحة تتطلّب قوّة واقتداراً وتصميماً (عزم الأمر) لإنجازها، لأنّها ليست حلية تُلبَس أو زينة يُتزيّن بها، بل هي (مَلَكَة) يجب أن تتوفّر في سبيل استحصالها قوّةُ عزيمة واستشعارٌ واستحضارٌ لكلّ القِيَم التي تُشكّل منظومة التسامح كقيمة كلّية أو شمولية. والتسامح من (عزم الأمر)؛ لأنّه ارتفاع بالموقف عن النوازع الذاتية التي تُحرّكها العوامل الغريزية، واتّصال العزم بالصبر والإرادة لإنتاج المُسامحة هو مقدّمة ضرورية، وبمعنى آخر، إذا أردنا أن نكون من حزب المصالحين، فلابدّ من تعلّم الصبر أوّلاً لنتمكّن من السيطرة على النفس التوّاقة إلى الانتقام والمنازعة إلى حبّ التشفّي في حالات الشتم والإهانة والإساءة، فهي إن تُركت على هواها داوت الألم النفسي بالهياج النفسي، وإن تعاطت عقار الصبر عالجت ألمها بدون المشرط والسّكّين، فالعفو عند المقدرة يتطلّب عقار (الصّبر). يقول تعالى: (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) (الشورى/ 37). وفي الحديث والسيرة: "ما انتقم النبيّ (ص) لنفسه قطّ، إلا

أن تُنتهَك حُرمات الله"!. ولا تعارض أو تنافي بين هذا وبين قوله تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) (الشورى/ 39). فلكلّ آية مجالها الحيوي الذي تتحرّك فيه، فالله تعالى يأبى الظلم البغي والطغيان والعدوان، ولذلك اعتبر الانتصار عند البغي واجباً وفضيلة؛ لأنّ التذلّل لمَن بغى واستعلى وأفسد يتنافى مع عزّة المؤمنين. يقول سيّد الشهداء الإمام الحسين بن علي (ع) في إبائه للضّيْم: "يأبى اللهُ لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحُجُورٌ طابَت وطَهُرَت وأنُوفٌ حميّةٌ ونُفوسٌ أبيّةٌ أن نُؤْثِرَ طاعَةَ اللّئامِ عَلى مَصارِعَ الكِرام"!. ويقول (الرازي) في تفسيره: العفو قسمان:

الأوّل: أن يكون سبباً لتسكين الفتنة، وتهدئة النفوس، ورجوع الجاني عن جنايته، وهذا محمود، تُحمل عليه آيات العفو، مثل: (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) (البقرة/ 237). وهذا مرغوبٌ فيه داخل الأُمّة الواحدة.

الثاني: أن يكون سبباً لتجرّؤ الظالم وتماديه في غيّه واستضعافه الأُمّة، وهذا مذموم، تحُمل عليه آيات الحثّ على الانتقام، وهو واجب في مقاومة العدوّ الخارجيّ، وعند اغتصاب الحقوق.

لقد كان رسول الله (ص) – كما كان أخوه يوسف (ع) من قبل – قادراً على الانتقام والفتك بقُريش، أو مؤاخذتهم، ومقابلتهم على صنيعهم المُخزي، لكنّه عفا عن أهل مكّة بعد فتحها ليُدشّن عهداً جديداً من الرحمة والتراحم والسّلم والمُسالمة والصّفح والمُسامحة ليُعبّد بذلك الطريق إلى بناء الدولة. وعفا (ص) عن أولئك النّفر الثمانين الذين قصدوه عام الحُديبية، ونزلوا عن جبل التّنعيم، فلمّا قدر عليهم مَنّ عليهم بالعفو مع قدرته على الانتقام. وعفا (ص) عن (غورث بن الحارث)، الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه (سيف النبي (ص)) وهو نائم، فاستيقظ (ص)، وسيفه في يَدِ ابن الحارث مُصلتاً، فانتهرهُ فوقعَ من يدهِ السيف، فأخذه رسول الله (ص) وقال له: مَن يُنقِذكَ منّي؟ فقال غورث: حِلْمُكَ يا رسول الله! فعفا عنه. وعفا (ص) عن المرأة اليهودية (زينب أخت مرحب اليهودي الخيريّ)، التي سمّت الذراع يوم خيبر، فدعاها فاعترفت، فقال (ص): ما حملكِ على هذا؟ قالت: أردتُ أن أعرف إن كنتَ نبيّاً لم يضرّك، وإن لم تكن نبيّاً استرحنا منك، فأطلقها (ص) على الرغم أنّه مات – بعد ذلك – من سُمّها. وخلاصة القول في أنّ المُسامحة من (عزم الأمور) هو أنّ مَن يصبر على الأذى – إذا كان المُسيء مسلماً – وغفر له بأن تركَ الانتصار (الانتقام منه) لوجه الله تعالى، كان صبره ومُسامحته من عزائم الله التي أمر بها، ومن عزائم الصواب التي وُفّقَ لها.►